جدليات الوعي والوحي
في إدراك التمايز بين "التأزيل" و"التنزيل"

خليل أحمد خليل
مفكر وعالم إجتماع . لبنان

ملخص إجمالي:

إذا افترضنا أن الوعي ما يكون من عقل الإنسان وحواسه، من عمله وحياته؛ وافترضنا أن الوحي هو ما يكون من خارج الفعل البشري، وما يوحى إلى عقل الإنسان؛ فإن مسألة جدل الوعي والوحي تبرز أمامنا بكل تعقيداتها وما تثيره من إشكالات. فهل يمكن افتراض وحي داخلي (ذاتي – اجتماعي) ووحي خارجي (إلهي – ملائكي) إلى العقل البشري المطلق وإلى العقل النبوي بشكل خاص؟ إذا كان هذا الافتراض قائماً في شقيه، فإن صراعاً سيدور بين نقيضين اعتقاديين. أولهما يقول بوحدة الوحي، كنشاط من نشاطات وعي الإنسان للعالم.. وثانيهما يقول بأحدية الوحي (التنزيل) سواء من حيث المصدر (الله) أو من حيث الجهة الموحى إليها النبيّ(ص). وهذا الرأي الثاني هو ما نواجهه في القرآن الكريم، حيث تتبدَّى مسألة الصلة بين التأزيل من «الأزل» أي التوحيد المطلق، المنقطع عن كل البشر؛ وبين التنزيل، وهو الوحي الخاص المنزَّل على وعي المصطفى(ص). فكيف يتحول التأزيل إلى تنزيل؟ بعبارة أخرى كيف تقومخ صلة ما بين ما هو مطلق أزلاً وأبداً وبين ما هو نسبي زمناً وإدراكاً؟ أي كيف يتصل الإنسان من مقام المجتمع بالله في مقام الغيب؟ هناك «وحي يوحى» يعلِّمه الله لنبيه بواسطة ملاكيه إسرافيل ثم جبرائيل. وهذا التعليم، المرموز إليه بإقرأ، ليس تعليماً اجتماعياً وبشرياً، وإنما هو تعليم إلهي واصطفائي. إنه إلهي المصدر، اصطفائي الوسيلة، بشريُّ الغاية. فالنبيِّ المصطفى(ص) الذي يتلفى باستعدادات وعيه البشري وحياً إلهياً فريداً ولطيفاً، يعرف أن التوجه بهذا الوحي إلى الوعي الجماعي، هو غاية الرسالة ومنتهى الدين.

مفردات مفتاحية: الوعي – الوحي – التأزيل – التنزيل – العقل – الكشف- التوحيد المطلق.

علوم المبدأ
العدد الثامن - 1445هـ - شتاء 2024م

تمهيد:

يذهب الإمام محمد عبده إلى القول التوفيقي السريع: «تآخي العقل والوحي لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل بتصريح لا يقبل التأويل»[1]. فإذا أخذنا بهذا الافتراض الاعتقادي، وقلنا إن مثل هذا التآخي، لا الجدل، بين الوعي والوحي قد حصل في القرآن، فإن هناك من سيعترض ويقول: إن صلة الوحي بالعقل هي صلة زمانية مكانية، تظهر في مجتمع تاريخي، وتكون فيه ظاهرة تاريخية. فكيف حصلت هذه الصلة؟ هل العقل هو الذي استوحى بوعيه، أم أن وحياً إلهياً منفرداً هو الذي اصطفى عقلاً نبوياً أحداً؟ هو ذا جوهر الإشكال. وفي المقابل، إذا كان الإمام محمد عبده يختار حلاً اعتقادياً لمسألة اعتقادية، فإن صراعاً يدور حول دور التآخي بين الوحي والوعي. فهذا التآخي بين نقيضين، إلهي وبشري، ينزع عن الاهرة الدينية سمتها التاريخية. فيغدو مفهوم التاريخ هو أيضاً موضع خلاف أساسي. فمن جهة هناك اتجاه يعتبر أن التاريخ، دينياً وغيبياً، هو تاريخ الله (أو الآلهة قبل التوحيد) والأنبياء والرسل؛ ومن جهة ثانية هناك اتجاه آخر يقول إن التاريخ، سوسيولوجياً، هو تاريخ البشر في عملهم وصراعهم المتواصلين، تاريخ تغيرهم وتطورهم، تاريخ تطور العقل الواعي بالمزيد من استقلاله الموضوعي عما هو ذاتي واعتقادي توصلاً إلى العلم الحق بعد انفكاك تحالف الإنسان والطبيعة على مستوى الذات والعبادة. ولهذا نلاحظ أن الإمام محمد عبده يدحض بنفسه مقولته في «تآخي العقل والوحي» حين يفسر فكرته قائلاً: «الدين يستخدم العقل عوناً والنقل ركناً». فكيف يتم التآخي، ومن معانيه التساوي أو التوازي بين الوحي (النقل ركناً) وبين الوعي (العقل عوناً)؟

إن من دلالات الوحي اللغوية:

أ. وحيت إليه، أوحيت، أي كلمته بما تخفيه عن غيره. معنى الوحي إذن إعلام في خفاء.

ب- الوحي هو الكشف، والموحي – الله – هو الكاشف.

ج- والوحي شرعاً هو «إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه»، وهو «عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من الله بواسطة أو بغير واسطة»، (3، ص 108). يستفاد من المعنى الأخير أن كل ذي عقل يوحى إليه من الله «بواسطة أو بغير واسطة»، ولكن الوحي النبوي أمر مستفاد بالاسفاء الإلهي، وبواسطة. فإذا قيل ﴿إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾، يكون إدراكه بمعنى أنه سر يكشفل ومجهول يعلم بعد إنغلاق، وخفي يظهر بعد استبطان. وإذا تحدد الوحي بأنه أداة معرفة وعرفان لوعي البشر، بات من الممكن أن يلتقي الوعي البشري والوحي الإلهي عند نقطة مشتركة للعلم هي نقطة الكشف عن خفايا الظواهر والعلاقات بينها، ولكنهما لا يتآخيان، وإنما يختلفان حول مصدر العلم؛

[1]- عبده – محمد: رسالة التوحيد؛ مكتبة الثقافة العربية، بدون تاريخ. راجع ص 7، 108، 118، 119، 128، 129، 144، 153, 156.

ويظل الجدل قائماً بين اتجاه يقول: إن العلم والفعل من الإنسان وحده، وبين اتجاه آخر يقول: إن العلم هو وحي من الله للإنسان، وإن الوعي هو عون أو أداة لهذا الوحي، وإلاّ لأصبح التوحيد الإلهي (وحدة الخالق) ملغياً، وصار الله والإنسان مشتركين في القدرة على الخلق. وعليه فإن هوة "التآخي" تظل قائمة وتزداد اتساعاً، خلافاً للمظنونات السطحية، فالعلم من جهته يؤكد أكثر فأكثر على استقلال العقل ووعي الإنسان، والوحي لا يزال يؤكد على تبعية العقل للغيب. ومثابل ذلك ما يقوله الإمام محمد عبده: "الرسل من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص؛ إنهم يرشدون العقل إلى معرفة الله"،(3، ص 118-119)؛ صلاح الأمم بالوجدان الديني دون البرهان المنطقي.. فالدين مستقر السكينة، به يرضى كل بما قسم له. الدين أشبه بالبواعث الإلهامية منه بالدواعي الاختيارية". ولكن العلم بما هو وعي ونشاط للعقل والحواس، هو شيء آخر غير الدين. ومع ذلك يؤكد الإمام عبده تبعية العقل والدين- هذه التبعية التي يسميها تآخياً – "إن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهي" (3، ص 128-129).

وفي مستوى آخر من جدل الوحي والوعي، تبرز مفارقة خاصة بين النبي الموحى إليه وبين الإنسان العاقل الواعي. فالنبي الموحى إليه، تنزيلاً، هو إنسان معصوم، منزَّه عن «الجمع بين النقيضين أو بين الضدين في موضوع واحد وفي آن واحد». لكن إذا اختلف هذا الآن الزماني – المكاني، فهل هناك مجال للتناقض والجدلية؟ وهل هناك صلة تقوم، عندئذٍ، ما بين النبي(ص) والبشر، توكيداً للآية: ﴿**أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**﴾[الكهف، 110]؟ إن ما يُراد من قول الإمام محمد عبده هو تنزيه النبي(ص) عن الخطأ، وليس نفي الجدلية عنه كإنسان. والمرُاد أيضاً هو التوكيد على أن النبوَّة بما توحيه من قرآن للوعي البشري، لا تناقض فيها ولا تضاد فيه: «علمه الألي الذي لا يعتربه التبديل ولا يدنو منه التغيير. وإن ما يجريه على أيديهم (الأنبياء) فإنما هو بإذن خاص في موضع خاص لحكة خاصة»، (3، ص 153). هكذا عدنا إلى الإشكال الأساسي حول التأزيل والتنزيل، وحول طمس الصلة التاريخية والوضعية بين الوحي والوعي. ومع هذا نجد أنفسنا أمام سؤال سنجيب عنه في ختام الكتاب، سؤال عن جدل علم الله وعلم الإنسان. على أن ما نكتفي بتسجيله الآن هو أن هذا الوحي التوحيدي يخاطب الوعي البشري دون الاعتراف باستقلاله وحريته إلا بقدر ما يكون عوناً للوحي المنقول في القرآن. وهذا ما يلاحظه الإمام محمد عبده أفضل الملاحظة، حين يقول: إن التوحيد جعل الإنسان عبداً لله خاصة، حرّاً من العبودية لكل ما سواه، (3، ص 156). وإذا صحت هذه الملاحظة على مستوى الاعتقاد الديني عند العرب بعد القرآن، فإنها لا تصح على مستوى الربوبية السياسية والعبودية الاقتصادية الاجتماعية والفكرية، اللتين سيطرتا طويلاً على حياة العرب. أليست الديكتاتورية السياسية شكلاً من أشكال الربوبية في الدولة؟ أليس الاستلاب الإجتماعي والإقتصادي والثقافي شكلاً من أشكال العبودية؟

لا شك في أن القرآن الكريم أقام جدلاً تاريخياً بين الوحي والوعي، ولا ريب في أن النبي محمداً(ص) استطاع أن يكون مجادلاً اجتماعياً – سياسياً وفكرانياً من الطراز الأرفع في تاريخ العرب. فقد كان يدرك التناقضات، ويعرف كيف ينفُذ منها إلى وحدة معينة، وحدة متحركة، حيَّة، تستوعب التغير ولا تنفيه. هذا ما يستخلصه البعض من الجدلية ما بين الآيات المتشابهات والمحكمات مثلاً. على أن الإمام محمد عبده يتبع منهج التوفيق الاعتقادي[1] مسقطاً من حسابه الجدل العلمي الذي يؤكد تناقضات الواقع، ومنها تناقض الفكر، والذي ينفي أن يكون فكر ما موحداً إطلاقاً؛ وإلا فإن وحدة الفكر الاعتقادي، مثلاً، بشكل مطلق، تبدو مستحيلة إذ أنها تنفي الجدل ذاته، الجدل الذي يجعلها مقبولة بشرياً. وإلا كيف أمكن تاريخياً، ويدون الجدل حتى في مستوى الفكر الاعتقادي و ظروفه الإجتماعية، الإنتقال من الشرك إلى التوحيد؟ وإذا كان الدين أشمل وأوحد من كل علم ومعرفة، فإن هذين الأخيرين لا داعي لاستمرارهما وتطورهما؟ أما إذا كان العلم أشمل من الدين وأوسع أفقاً وتطوراً، فإن «الراسخين في العلم» سيجدون أنفسهم أمام مأزق حاسم. ذلك أن الوحي القرآني قدم لهم ديناً عاماً، محصوراً في سور وآيات، وعلّمهم أن أمور الغيب تؤخذ بالتسليم والانقياد. فكيف يتدبر العقل البشري ذلك وهولا متناهٍ في بحثه عن اللَّامتناهي؟

يمكن الملاحظة، من إحدى المواجهات التحليلية والاستنتاجية، أن الوحي القرآني ليس نقيضاً- بديلاً للوعي العقلاني. فهذا ما يستفاد من الآية الكريمة ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[يوسف، 2]؛ فالوحي هنا مادة للوعي، موضوع له، ولكنه أيضاً أداة حكمة وتحكيم ﴿**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا**﴾[الرعد، 37] أي بلغة العرب لتحكم به أيها النبي(ص) بين الناس. والوحي فرقان فاضل، ﴿**قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**﴾[الزمر، 28]، أي بدون لبس ولا اختلاف. وهو ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[فصلت،3]؛﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ**﴾[فصلت، 44]. وتبرز بشكل أوضح جدلية الوحي – الوعي في الآية:﴿**وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ*أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾[ص، 4-5]. وفي الآية: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ**﴾[الزمر، 23]، أي قرآناً يشبه بعضه بعضاً في النظم وغيره، ومثاني أي ثني فيه الوعد والوعيد- والشفع والوتر، الزوج والمفرد ألخ.

الغيب والطبيعة والبشر

ليس القرآن الكريم كتاب إيمان عام وحسب، وإنما هو في الوقت نفسه مليء بالآيات والتفاصيل التي تخبر عن أمور الغيب وظواهر الطبيعة وأعمال البشر. وإذا كان يرمي إلى ترسيخ اعتقاد ديني في ثقافة العرب المتجددة أيام النبي(ص)، فإنه في الوقت نفسه يقيم جدلاً ما بين الغيب والأنبياء،

[1]- عبده – محمد: الأعمال الكاملة، الجزء الخامس في تفسير القرآن؛ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1973. راجع ص9-17.

بين الخالق والمخلوقات – الكون، الطبيعة، البشر إلخ. ويقدم هذه المخلوقات برهاناً على وحدة الخالق، وقدرته اللامتناهية على الخلق. ويأتي الوحي لوعي النبي(ص)، ولوعي البشر من خلاله، برهاناً آخر على وجود «عالم الغيب والشهادة». فالقرآن بما هو وحي موحى لنبي، إنما يرمي بكلامه الموحى إلى تفسير أسباب الإيمان ودواعيه وكيفياته. ومن هذه الزاوية يمكن الافتراض بأن الإنسان الذي يتقبل وحدة الإيمان بمشاعره وافتتانه بأسرار الغيب ومكنونات الطبيعة، قد لا يتقبلها بعقله إلا ببرهان يقيني. والقرآن الذي تتنوع سوره وآياته تنوعاً مفصلاً حول اقتران الغيب والطبيعة والبشر، هو بحد ذاته برهان مُعجز في نظر البعض؛ وهو سيرة تناقضات كثيرة يرويها النبي للبشر، في نظر البعض الآخر.

يبدأ القرآن من اقتران الكلمة ﴿**إِقْرَأْ**﴾ بالإنسان المترفع بالوحي إلى النبوة. وإذا كان هذا الاقتران لا يدل مباشرة على وحدة الوحي والوعي، فإنه يدل بكل تأكيد على جدلية الثقافة وموروثاتها البشرية من جهة، وعلى جدلية البشر والطبيعة بما هي مادة وطاقة من جهة ثانية. وما التوكيد القرآني على وحدة الغيب سوى محاولة برهانية لإقناع العقل. غير أن وحدة الغيب مثلاً لا تنفي التعدد (الله، الملائكة، الشياطين) ولا تنفي المثنوية، إن لم نقل التضاد والتناقض (الوتر، والشفع، الأحد والآخر). كما أن وحدة الكون لا تلغي التناقض فيه (الليل والنهار، الظلمات والنور، السماء والماء، الماء والهواء، الهواء والأرض، الشمس والسماء ـ التراب (الأديم) والإنسان (الآدم) إلخ. وإن وحدة البشر لا تلغي تنوّعهم، وتناقضاتهم ومنازعاتهم وتحولاتهم اللّامتناهية، وسوف تكون هذه الأمور موضع بحث مفصَّل في الفصول التالية. على أن قولنا بجدل الغيب والطبيعة والبشر قرآنياً، يستلزم فهماً محدداً للكلمة القرنية، هذا اللوغوس العربي القائم بدوره على جدل حياة العرب اجتماعياً وثقافياً وحضارياً. فإذا تمثلنا الآية ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**﴾ لاحظنا التسلسل المنطقي والسببي من جهة، ولاحظنا الصلة اللغوية بين السماء والماء (هذا السماء البعيد: س+ ماء)، هذا السماء المؤنث – المذكر وهذا الماء المذكر، من جهة ثانية.

وفي مستوى آخر من التحليل لجدل الغيب والطبيعة والبشر، ستواجهنا مسألة الصلة بين الله والنبي(ص)، ومسألة التواصل بين الله والبشر بعد النبيِّ(ص). فالله الذي ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ هو مطلق خارج تاريخنا، خارج حدودنا المكانية الزمانية، خارج ثباتنا وتغيرنا. والنبي(ص) الذي هو بشر مثلنا، هو تاريخي، من تاريخنا المحدد زماناً – مكاناً، وداخل ثباتنا وتغيُّرنا. فكيف، والحال هذه، تتزمَّن الألوهة، تتناسب مع البشر، وتتنزَّل عليهم؟ هل أنهذا النسبي، هذا التنزيل، في الألوهة يجعلها غير مطلقة؟ أم أن كونها متصلة وحياً بالبشر لا يجعلها نسبية؟ مهما يكن الأمر فإن صلة الوتر بالشفع استغرقت تفكير المفكرين والفلاسفة، وجعلت مسألة صلة المطلق بالنسبي، صلة اللّامتناهي بالمتناهي، صلة الغيب بالطبيعة وبالبشر، من المسائل الداعية للتأمل والقول. وإذا

كان العرب قد تلقوا هذا الجدل التأليفي بين الغيب والطبيعة والبشر في إطار تاريخ تحالفهم مع الطبيعة ذاتياً فإنهم اليوم يواجهون مسألة إعادة النظر في هذا الجدل على ضوء انقطاع التحالف بين الغيب والبشر من جهة، وبين البشر والطبيعة من جهة ثانية. فكيف أبرز القرآن الكريم مفاهيم جدل الغيب والأنبياء، جدل الغيب والطبيعة، وجدل البشر؟ وكيف يتعامل الفكر المعاصر مع هذا الجدل الاعتقادي؟ وما هو الدور المتبقي لدين، كالأيام، بدأ قومياً لتوحيد العرب، واستحال جديناً لا قومياً مع اتساع الإسلام خارج العرب؟

الغيب الإلهي والوعي النبوي

لأخبار الغيب مكانتها القدسية في القرآن الكريم. وهي تتعلق، بمعظمها، بما يُفترض أن البشر، ومنهم الأنبياء، يجعلونه، ويعملون في الآن ذاته على استشرافه. وتبدو جدلية الغيب والأنبياء كأنها علاقة رسولية خاصة تقوم بين عالم الغيب، مقام الإله والملائكة، مقام الجنة والجحيم، وبين عالم الشهادة، مقام البشر والحيوان، مقام الزمان والمكان، مقام التاريخ. وتبدو الطبيعة، بما هي كون دائم، واسع، لا متناهٍ، مقاماً مشتركاً للغيب الإلهي ولأنبيائه من البشر.

- الغيب الإلهي

يعتقد أن الغيب الإلهي يتجلّى ويتكشف للنبي(ص)، وللبشر من بعده، في آيات قرآنية مسوَّرة. ويتبدّى للباحثين أن الله هو جامع الغيب، وأعلى ما فيه. وأنه في تجلّيه القرآني ذو أسماء حُسنى لا تتعدى التسعة والتسعين أسماً. إلا أن الجدل يفرض نفسه على الباحثين،. فمنهم من يتساءل هل هي أسماء أخرى لله ذاته، أم هي صفات يُقصد بها الإيحاء التدليلي على عظمة الغيب؟ ومنهم من يعتبرها من آيات الغيب المنزَّلة للمؤمنين، ولا صلة لها بتصورات البشر لآلهتهم القديمة. ويستنتجون من ذلك أن البشر لا يصنعون الآلهة وفقاً لظروفهم وتاريخهم وطورهم الإجتماعي ومستواهم الثقافي. غير أن تحليل دلالات هذه الأسماء الحسنى الكريمة، يكشف لنا ما يلي:

أ. قدسية الغيب:

تدل على قدسية الغيب الاعتقادية أسماء وصفات فريدة، لا تكون لأحد سواه. منها: الرحمن(ويقابله بشرياً: عبد الرحمن)، الرحيم (ويقابله عبد الرحيم)، القدوس (عبد القدوس)، العلي(عبد العلي)، المتعالي، النور، الواحد، الأحد، الصمد، ومثنويّة الظاهر – الباطن. وتتميز هذه الأسماء – الصفات بأنها مطلقة لا تكون للبشر في التراث القرآني. والمثنويات عديدة في الأسماء الحسنى، كما سنرى.

ب. الغيب الخلاق:

يستمد الغيب ميزة الخلق من خالقه الوحيد، ـ لله. والخالق هنا أيضاً مطلق في خلقه، ولا مثيل له، ولا شريك. فإذا كنا نقول للمبدعين من البشر، رسام، مصور، مبدع إله فإنه قول نسبي، ومتعلق بمبدعين زمنيين أي تاريخيين. وأما الله فهو الخالق إطلاقاً، والإنسان هو (عبد الخالق). والله هو البارئ، المصور – البديع، الواحد، المبديء – المعيد، المحيي – المميت، الحي – القيُوم، الأول – الآخر. إنه خالق خارج زماننا، وخالق لكل مكان وزمان على الإطلاق. الإنسان في الطبيعة هو خلافه، إذ أنه خالق نسبي، خالق لما هو ممكن، كاشف له، محول لطاقاته. الله هو خالق كل شيء، الممكن وغير الممكن؛ **يَقُولُ لِلشيء «كُن فَيَكُونُ»**.

ج- الدينونة والآخرة:

البشر في القرآن الكريم هم الموضوع العام للغيب، وهم مقصده في الآخرة، في الدينونة. فالخلق الإلهي له غاية أخيرة، خلافاً للخلق البشري ذي الغاية المحصورة في التاريخ. وغاية الخلق الإلهي هي محاسبة البشر، فيما بعد موتهم، وخارج تاريخهم. ولهذا يغدو مقام الغيب القرآني مقاماً للبشر؛ والخالق القدسي يتسمى في هذا المجلى أسماء حسنى هي: الحكم، الحسيب، الرقيب، الشهيد (بمعنى الشاهد، والإنسان يعتقد أيضاً أنه هو الشاهد الوحيد على وجوده وتطوره)، الوكيل، الولي، المُحصي، التوّاب، الباعث.

د- الغيب سلطة:

وبما أن إله الغيب، مقدس، خالق إطلاقاً، عنده الابتداء والانتهاء، الآخرة والقيامة والدينونة، فإن الغيب سلطة مطلقة، وبكل معنى الكلمة. وهذه السلطة الغيبية المطلقة شاملة لكل شيء، لا توازيها سلطة ما، ولا تماثلها أية سلطة بشرية كائناً ما تكون. ومن الأسماء الحسنى لهذا السلطان الإلهي، أنه: الملك – المهيمن- العزيز؛ الجبار – المتكبر – القهّار – المتين- القوي – المجيد؛ الجليل- المقيت – العظيم، القادر – المقتدر، المقدّم – المؤخّر؛ الوالي – مالك المُلك، المنتقم – العفو، الغني – المُغني، المقسط – الجامع، الباقي – الوارث؛ ذو الجلال والإكرام.

هـ - الغيب الرازق:

يؤكد القرآن الكريم، خلافاً لما يعتقده البعض، أن الله هو الخالق، المالك لكل ملك، وأنه مصدر لكل رزق. فالأرزاق بيد الله، كما الأعمار. وكل شيء. ويمكن في هذا السياق ملاحظة مغزى الدعاء لله من ناحية طلب الرزق – مثل يا فتَّاح، يا رزاق يا كريم. فالله، قرآنياً، هو الفتّاح، الرزاق، الوهاب (والإنسان هو عبد الفتّاح، عبد الرزّاق، عبد الوهّاب). وهو الكبير، الكريم (عبد

الكريم) والحفيظ(عبد الحفيظ)، وهو المجيب – الواسع – المانع؛ القابض – الباسط، الخافض – الرافع، المعزّ – المذلّ؛ الضار - النافع . ومما يلاحظ هو أن العرب لم يتسمُّوا بأسماء الله الحُسنى التي تضرّ بأرزاقهم ومصالحهم، فلم يعرفوا أسماء مثل (عبد القابض، عبد المانع، عبد المذلّ، عبدالضار إلخ)، وإنما تسموا بأسماء العبودية لصفات تفيدهم مثل (عبد الباسط). وهذا الاستنساب له مغزاه السوسيولوجي البالغ الأهمية.

و- أعلى القيم الأخلاقية:

إن هموم البشر الإجتماعية هي التي تفسر خياراتهم الاعتقادية وبعض تسمياتهم. فالبشر في إيمانهم الغيبي ليسوا مجردين إلى حد الإطلاق عن واقعهم التاريخي ومصالحهم الإجتماعية. وفي ضوء هذا الواقع يستنسبون في اختيار تسمياتهم الشخصية من صفات العبودية للأسماء الحسنى، ما يتناسب مع مشاريعهم ومطامحهم ومتطلعاتهم. فمثلاً من مصلحة الإنسان أن يتسمى باسم عبد الغني، وعبد الباقي، وعبد الوارث ألخ. ولكن لا مصلحة له إطلاقاً في أن يتسمى باسم عبد الضار مثلاً أو عبد الخافض، وعبد القابض إلخ. ويزداد هذا الأمر وضوحاً حين تلاحظ أن طموح البشر الإجتماعي لأعلى القيم الأخلاقية، جعلهم، قرآنياً، يستسيغون أسماء الله الحسنى مثل: السلام، العدل، الحق، اللطيف، الحليم، الودود، الحميد، الماجد، الرؤوف، الهادي، الرشيد، الصبور، ويتسمُّون بها دونما تردد، حتى أن تسمية (الكاتب العدل)، وهي ليست إسماً شخصياً، إنما هي دلالة على وظيفة مهمة مادياً. وتتصل بهذه القيم العليا أسماء حسنة أخرى منها ما يُستفاد منه التدليل على الإيمان (مثل: المؤمن، الغفّار، الغفور، البر، الشكور)، وما يستفاد منه التدليل على المعرفة (مثل: العليم، السميع، البصير، الخبير، الحكيم).

إزاء هذا التسلسل الاعتقادي من قدسية الغيب إلى الغفيب الخالق مروراً بالسلطة والأرزاق الغيبية، تتبلور أمامنا القيم الأخلاقية التي يطمح النبي(ص)، قرآنياً، لإحلالها في المجتمع. فالغيب على إطلاقه الأصلي يتنزّل إلى البشر، ولو على مراقي الأنبياء، ويتناسب مع حياتهم وموروثاتها الثقافية، ويتزامن مع تاريخهم، وإن على شاكلة تاريخ آخر، تاريخ مقلوب. ففي هذا التاريخ الديني للبشر، تغدو الألوهية – الربوبية، مهما تعددت الاعتقادات وتنوعت أشكالها، رمزاً للسلطة على المؤمنين، عبيد الله. الله رب العالمين، فهو مالكهم ومربيهم روحياً. وهو ربهم الحق، وكل رب إجتماعي سواه باطل: ﴿**أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ**﴾[البقرة، 139].

إنه عالم الغيب والشهادة. وما الغيب سوى الإيمان بما غاب عن الناس من البعث والجنة والنار. وأنبياء الله هم بشر، لا آلهة: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ**﴾[آل عمران، 79]. وإذا كان المقصود بـ

«**كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ**» أي علماء منسوبين إلى الرب، فإن الموروثات الثقافية الدينية تجاوزت ذلك، فتسمى البعض بأسماء عبودية إجتماعية منها: عبد المسيح، عبد النبي، عبد الحسن، عبد الحسين، إلخ. ومن الواضح في المقابل أن هذه الآية تتناول بالنقد كل أشكال العبودية البشرية للربوبية البشرية على الإطلاق. فعبودية البشر هي لله وحده، لربوبيته المطلقة. غير أن الاعتقادات الدينية تبدو متوثّنة، سوسيولوجياً، بمعنى أنها تتكيف مع تطور المجتمع وتتلبَّس عاداته القديمة اتي جاءت ذات يوم لتتحداها؛ وتتحدّى عاداته المُستجدة على الموروثات الثقافية السالفة. وهذا كله يطرح على البحث مسألة السلطان الديني، سلطة الغيب، من زاوية تطور البشر وتبدّل موروثاتهم الثقافية، الأقصر عمراً من الإنسان نفسه. فكيف، والحال هذه، يستطيع الفكر الاعتقادي أن يكون، من خارج التطور التاريخي والتغير الإجتماعي، شهيداً على الإنسان؟ وإلى أي حد سيرضى الإنسان المعاصر،مثلاً، في التخلي عن شهادة تطوره الذاتي لصالح موروث اعتقادي سالف؟

من الملاحظ، على مستوى المجتمعات العربية، أن عملية الاقتناع الاعتقادي متواصلة، وأن الصراع على أشدّه بسبب معطيات الاعتقاد الغيبي بالذات. فكيف تفسر، جدلياً، تناقضات هذه الظاهرة؟ هل يمكن الاكتفاء بحصرها في نطاق التصنيف الإيماني والتصنيف الإلحادي؟ أم أن هناك سبلاً أخرى، ثقافية وسوسيولوجية، لفهم ظاهرة الإشال الاعتقادي في عصرنا؟

إن الاكتفاء بالتبشير الاعتقادي، دون ممارسة مقوماته الاجتماعية، كالعدل، السلام، الحق، الجهاد (رهبانية الإسلام كما يقال)، يدعو للتأمل كثيراً في أسباب ظاهرة التغير الاعتقادي. فالإنسان، جوهراً، ليس بمستطاعه اللاعتقاد الدائم بثوابت فكرية، منعزلة من الممارسة، في السياسة كما في الدين. وإذا اكتفى المبشر الديني في المجتمعات العربية بتكرار تبشيره القرآني. دون الانتقال الى تقنية هذه المعطيات الاعتقادية في سبيل هدف تاريخي محدد، فإن التبشير الاعتقادي سيواجه مأزقاً محتوماً. وهذا ما يُستفاد من جدلية النبوة المحمدية الهادفة، فيما كانت تهدف، إلى توحيد العرب سياسياً، بممارسات اعتقادية مشتركة، تتفاعل مع محركات الموروث الثقافي العربي، وتنهض بالإنسان جديداً. إن الجدلية الاعتقادي لا قيمة لها خارج الإنسان، فما قيمتها بدونه؟ هذا أمر أدركه النبي(ص) وهو يجادل مبشراً بأن النار والجنة من آيات الغيب: ﴿**النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [البقرة، 24]، والجنة ﴿**.. وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[البقرة، 25]؛ وكذلك البعث أو النشور الدائم ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[البقرة، 28]، ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[البقرة، 56]. إذن، التبشير الاعتقادي يستمد قيمته من الدورالتاريخي الذي يعطيه للبشر، موازناً بين الصلة الجدلية لاعتقادهم بممارساتهم وبين مسالكهم. وإذا لم يستمر هذا التوازن الجدلي، فإن انفصاماً بين التبشير الاعتقادي، بما هو محرك ثقافي، وبين العمل الإنساني، بما هو محرك إجتماعي سيقع، ويعمق الفجوة التاريخية بين موروثاتنا

الثقافية وبين احتياجاتنا الفكرية – التاريخية الراهنة. وعندها، يشتد الخطر على الفكر الاعتقادي، ويكاد التبشير بالجنة والنار والبعث، وهي آيات الغيب الإلهي، يفقد دوره، لأنه يذكّر البشر بعالم الغيب، بخلق غائب، ويتركهم وحيدين، أو متوحدي، أمام العالم الحاضر، خلق الحاضر، وكأنهم بدون مستقبل آخر سوى ماضيهم الاعتقادي. والحقيقة أن جدلية الغيب والأنبياء غير منقطعة اعتقادياً في أذهان البشر وفي عاداتهم، ولكنها تبدو في عالم الشهادة، عالم الحضور، أمام مأزق حاسم. إذ أن صلة عالم الغيب بعالم الشهادة صارت، اليوم، مثاراً للجدل أكثر من أي آن مضى. فحضور الغيب في عالم الشهادة يتبدّى من خلال آيات كريمة، مثل ﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ (أي مبدعها وموجدها)، ومثل﴿**فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[غافر، 68]، ولكن النزاع يتفاقم في عصرنا، حول الاعتقاد بالخالق الوحيد لهذين العالمين معاً، عالم لا منظور وعالم منظور. وهنا نعود لملاحظة الصراع بينالاعتقاد الإيماني والاعتقاد الإلحادي. فالأول يتخذ العالم المنظور دليلاً على وجود الغيب؛ والثاني يتخذه دليلاً على نفي وجوده فماذا يمكن القول، سوسيولوجياً، في الصراع الاعتقادي، أكان صراعاً أم إيمانياً أمصراعاً إلحادياً؟

نلاحظ من الوجهة الموضوعية الصرف، أن الدور الإقناعي الاعتقادي كان يعود، قرآنياً، للنبي(ص) وللمؤمنين، المؤتمنين على القرآن من بعده. فالنبي(ص) في القرآن جدلي في دوره. فهو من جهة بشير (بما يبشر من جنة)، وهو من جهة ثانية نذير (بما ينذر من جحيم). والنبي(ص)، في الآن ذاته، هو المؤمن، الثابت في اعتقاده، المجاهد في سبيل ما أوحي إليه من آيات الغيب، لترسيخها اعتقاداً وسلوكاً. وهنا نلاحظ على صعيد الإجتماع التاريخي، كيف يتحول الدين إلى معاملة، أو علاقة سوسيولوجية، تربط أواصر الناس إيمانياً، وكيف يتحول الأنبياء، بالنبوَّة، من بشر كالآخرين، إلى بشر مترفع، بحيث أن الإيمان بالله والغيب يغدو مشروطاً بإيمان متمم هو الإيمان بالأنبياء المرسلين وبما يحملون من صحائف. فالنبيِّ(ص)، الوسط بين الله والبشر، وهو أيضاً وسط بين الوحي والوعي، وسط بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وسط بين الخالق والمخلوق، بين الذات والغرض. ومجال التوسط هو الأرض، الحياة الدنيا، الزمن على إطلاقه. ذلك أن اختتام النبوَّة لا يتناهى مع تناهي النبي(ص) الشخص، وإنما يستمر في الاعتقاد البشري، وعلى أمانة المؤمنين. وهكذا يبدو المنطق الاعتقادي متسلسلاً بشكل عقلاني: فالنبيِّ من البشر. وهو يوحي من الغيب الإلهي، يفسر لهم أسرار وجودهم وأهدافه، كاشفاً لهم، في القرآن الكريم، ما أذن له الله بكشفه من أنباء الغيب.

ويتبين من التحليل أن الأنبياء والرسل الذين يذكرهم القرآن، كثيرون ومنتمون إلى أمم شتى، ومن أبرزهم محمد(ص)، عيسى، موسى، إبراهيم، نوح، لوط، آدم، إلخ. والتوحيد الإلهي هو الجامع بينهم على تعددهم وتباين ظروف ظهورهم؛ ذلك أن هذا التوحيد القرآني يتعدّى، اعتقادياً،

كل جدل بين الأضداد والمتعارضات والمتقابلات. فهو توحيد مطلق. وآيات التوحيد كثيرة في القرآن الكريم، نتمثَّل بعضها. ﴿**قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ**﴾؛ ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾؛ ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ**﴾؛ ﴿**لوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ* لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾؛ ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾؛ ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ**﴾؛ ﴿**أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾؛ ﴿**أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾؛ ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾، ﴿**لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**﴾؛ ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾؛ ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

إن هذه الآيات الكريمة تشدد على وحدة الإله المطلقة، المتعدية لكل النقائض والمستقطبة لكل شيء في آن ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[النور، 35]. وفي حين يشدد الجدل العلمي على الأضداد المتصارعة والمتوحدة في كل شيء، يبرز القرآن مفهوماً توحيدياً لمطلق سابق لكل الأضداد، فهو الدائم الثابت المتأزل، خالق الأضداد ومتعديها من داخلها ومن خارجها معاً. وجوده نوراني مطلق، خلاف وجود الإنسان المشروط زمانياً – مكانياً. وهكذا، تنطرح مرة أخرى مسألة الجدلية الممكنة بين الإلهي المطلق والإنساني النسبي. فهذا الأخير تنكشف حقيقته بواسطة المعرفة الاختبارية، وعي الممارسة، حيث يدخل الزمان في تكوين المكان. وأما الإلهي المطلق فلتستفاد معرفته من طريق الوحي النبوي الذي يكشف عالم الغيب لعالم الشهادة، ويضع الوعي الإنساني أمام الاختيار الاعتقادي ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾. ويقوم الاختيار الاعتقادي على الإيمان المهتدي بمعرفة حكمية، قرآنية، تتعدى كل تضاد وتناقض ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾. ويعتبر دور الأنبياء أساسياً في ترسيخ الاعتقاد الإيماني في ثقافة الناس، فكيف يبرز القرآن دور الأنبياء تجاه الغيب وتجاه البشر؟

الأنبياء والغيب:

لا نبوّة بلا غيب. فمن الغيب تتنزل على الأنبياء المعارف القدسية، وإليه يعرجون في زمن خاص. كما إن الغيب يصطفي من الأمم الأنبياء، منزلاً عليهم الكتب، محدداً لهم الأدوار الدينية. والبشر يواجهون، بدورهم، النبوّة بموقفين أحدهما إيماني إنقيادي، وثانيهما صراعي.

علوم المبدأ LLMOLMABDAA
العدد الثامن - 1445هـ - شتاء 2024م

أ- العرش والزمن الغيبي:

إن مفهوم العرش، أو الكرسي، ينفي العدمية. ويستفاد هذا الاستنتاج من تفسير الآية ﴿ **يَقُولُ لِلشيء كُن فَيَكُونُ**﴾، بمعنى أن الأمر الغيبي يتوجه إلى شيء قابل للوجود، إلى ماهية قابلة للتشكل والتصور، إلى هيولي أصلية، جوهرية، تتكوّن بذاتها، بأمر من خالقها. وأما القول بأن «العدم» «موجود»، فهو قول متناقض جوهراً، ومستحيل أصلاً. ولو افترضنا وجود العدم، فانه لا يعود عدماً لمجرد أنه موجود. إذن الخلق يكون من القابل للوجود، من الموجود القابل للتحول والتكوّن جوهراً وعرضاً. وإلا فما معنى الآية الكريمة ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ سوى الإشارة إلى مطلق الوجود، ونفي الخلاء أو العدم؟ تقول الآية [هود، 7]: ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾، والماء عنصر موجود، وهو ليس عدماً. وهذا الماء جوهري في الخلق الغيبي؛ ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾،[الأنبياء، 30]. فالماء هو هيولي الخلق، قرآنيا، جوهره وأصله: ﴿**وَأَرسَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً**﴾ ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء**﴾[النور، 45]، ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا**﴾ - ويقابلها آية أخرى ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ [هود، 61]. فالماء والأرض أساسيان في خلق الحياة، والماء يتضمن الهواء، والتراب يتضمن الماء، والنور له دوره في الخلق،، ويستحيل ناراً للحياة أو للعذاب.

إذن ليس الغيب من عدم، ولا هو بعرض الألوهة القائم على عدم. أنه من الحياة، وصلته بالأنبياء صلة خلاّقة. أما كيف تتم الصلة بين الغيب والأنبياء، فإنها تتعدى حركة الزمن وأبعاد الكونية المكانية. فالزمن الغيبي والزمن النبوي مختلفان عن الزمن المادي أو التاريخي للبشر. إنه كما سبق القول، زمن وحي: ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**﴾، ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾، ﴿**تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾[المعارج، 4]؛ ﴿**ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾[السجدة، 5]. هذا يعني أن زمن الخلق الإلهي، زمن الحركة الغيبية، هو زمن الخلق البشري، زمن الحركة الأرضية والفلكية. وليس المقصود في هذه الآيات تحديد مقياس للزمن الإلهي، وإنما التدليل على اختلاف ماهية الزمن الغيبي وخاصيّتها.

ب. الأمة والاصطفاء النبوي:

ليس للأمة مفهوم واحد في القرآن الكريم. وبما أننا سنعود تفصيلاً إلى مقولة الأمة، فإننا نكتفي هنا بملاحظة ما يلي:

1 - الأمة مفهوم زمني: مثل أمة معدودة بمعنى أوقات؛ ومثل القول بعد أمة أي بعد حين.

2 - الأمة مفهوم تجمُّعي: مثل القول أمة أربى من أمة أي جماعة أكثر من جماعة.

3 - الأمة مفهوم ديني: بمعنى الملَّة والدين والإمام. والشواهد على ذلك عديدة، نذكر منها: ملة قوم، دين قوم، وأمة واحدة أي دين واحد. ﴿**إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ أي أنها ملَّة الإسلام، وهي دينكم. والآية: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا**﴾ أي كان إماماً، قدوة، جامعاً لخصال الخير.

وإذا كان القرآن الكريم يستعمل مفهوم الأمة بمثل هذا التعدد والتنوع؛ فمن المؤكد أن النبوّة تتوجه للأمة بمعناها الديني الأخير. والاصطفاء النبوي للأمة الدينية يتم في زمن بشري مقدَّر، أصلاً، في زمن غيبي. وهذا الاصطفاء هو من قدر الغيب، من سلطته الممكنة والمحفوظة في اللوح. فهنا تتعطل السببيَّة التي تفسر لماذا اصطفى الغيب هؤلاء الأنبياء دون سواهم من البشر. فالإصطفاء هو اختيار إلهي غير مشروط؛ إنه قدر من الغيب على الأنبياء. والقدرية لا تفسر الظاهرة النبوية، وإنما تشير إلى إصطفاء الأنبياء وحسب: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[آل عمران، 33]؛ ﴿**الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمُ: كلمة منه**﴾﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[آل عمران، 67]؛ ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾ [التوبة، 114] أي أنه كثير التضرّع، صبور. ﴿**وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً*فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ*وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ*وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ**﴾[الواقعة، 7-10] أي الأنبياء. وهؤلاء الأنبياء يمتازون بسبقهم الآخرين إلى الإيمان بالغيب، وبيوم الدين، الآخرة. فلا اسصطفاء نبوي للإنسان، ولأمته من خلاله، إلا على أساس إيمانه المسبق بالغيب؛ إيمانه إذن يسبق الوحي؟ هذا ما يستفاد منمفهوم الإصطفاء. ولكن الأسبقية هنا لها مدلول مختلف، عن الأسبقية بمعناها المادي والتاريخي، إذ أنها أسبقية قائمة خارج الزمن؛ والنبوّة كذلك. غير أنها تظل قائمة إجتماعياً، إذ أن الوعي الإنساني للغيب يكون قائماً قبل الوحي وبعده، ويستمر معه من خلال التنزيل ودور النبي(ص).

ج- التنزيل ودور النبي(ص):

يؤمن النبي(ص) بالغيب تأزيلاً وتنزيلاً. فالنبي المرسل هو الأمين، الهادي، الصادق، البشير، النذير، الشهيد(الشاهد)، المختار، المصطفى. وهو مختار من الأزل، مستعد لتقبل النبوّة في مزمن ظهوره الإجتماعي، ليكون بنبوّته شهيداً- وقد مر معنا أن الشهيد من أسماء الله الحسنى- ، على سلوك البشر الاعتقادي، وهادياً لهم بأسلوب البشر للمؤمنين والنذير للكافرين. فكيف تبدو العلاقة الجدلية بين التنزيل القرآني وبين الدور النبوي للمصطفى؟

1. التنزيل القرآني:

يدلنا القرآن في آيات عديدة على جوهر التنزيل ووحدة مصدره الغيبي. وأول ما يلاحظ أن

التنزيل غير مباشر من الله إلى النبي(ص)، أي أن التأزيل لا يوحي بنفسه إلى نبيه، وإنما يتوسطهما روح، ملاك، أمر من عالم الغيب. وهذا التوسط يعتبر، قرآنياً، موضع اعتقاد مثل الغيب والنبوة: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾. والتنزيل يبقى سراً مغلقاً: ﴿**قُلْ أَنزلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ ولذلك فهو يؤثر على الطبيعة (الجبل مثلاً) فكيف لا يؤثر في البشر؟ ﴿**لو أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَه خَاشِعًا مُتَصَدِّعاً مِن خَشْيَةِ الله* وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾.

ومن أشد ما يلفت الانتباه هذا التوكيد التكراري على تنزيل الكتاب ذاته: ﴿**كِتَابٌ مُنِير**﴾، ﴿**كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ**﴾، ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾، ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾، ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾، ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾؛ ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا...**﴾، ﴿**الله نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ**﴾، ﴿**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ**﴾؛ وما هذا التوكيد سوى دليل على مدى الصعوبة التي يواجهها النبي(ص) في تثبيت دعوته النبوية وترسيخ الكتاب الاعتقادي الموحى إليه:﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكم مِن خَيْرٍ**﴾، ﴿**فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾. ويحسم الصراع حول صدق التنزيل بالآية الكريمة: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾.

كنا قد أشرنا إلى أن الاصطفاء النبوي ليس وقفاً على أمة دون الأمم الأخرى، ونبوّة محمد(ص) هي اصطفاء ديني لأمة العرب، وتوحيد لكافة النبوّات في إسلام مطلق، ومن طبيعة هذا التوحيد القرآني أنيثير صراعاً مع أصحاب الكتاب ومع المشركين في آن. ويتبلور مسار الصراع حول إيمان النبي(ص) ذاته بما يوحي إليه: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نـزلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِه لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾، فالكتاب ليس واحداً من الكتب الدينية، وإنما هو الفرقان الأخير. وهو الذكر: ﴿**وأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ولَعَلَّهم يَتَفَكَّرُونَ**﴾. ولكنه كتاب عربي، فرقان عربي، يفصل لأول مرة فصلاً اعتقادياً بين ديانات التوحيد، طامحاً في الآن ذاته إلى توحيدها، كما سنرى في موضوع آخر. ولقد سبق أن أشرنا إلى عروبة القرآن والنبي(ص)، فنكتفي هنا بإيراد بعض الآيات: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾،﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾، ﴿**وكَذَلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا**﴾؛ ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنـزلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾. وتبدو الغاية الأخيرة للتنزيل القرآني على مصطفى العرب، هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور. فكيف يبدو الدور النبوي في هذا السباق؟

2. الدور النبوي:

في ضوء الاصطفاء النبوي، ومن خلال التنزيل على المصطفى، يتحدد الدور العام للنبي(ص)، وذلك دون الدخول في تفاصيل هذا الدور التاريخي الذي لعبه محمد(ص) في حياة العرب الإجتماعية والثقافية والسياسية. ومن الواضح أن القرآن لا يأتي على ذكر الدور القيادي السياسي والتنظيمي والحربي الذي اضطلع به الرسول(ص)، ولكنه مع ذلك يرسم الخطوط الكبرى للصراع الذي دار حول النبي (ص) بالذات. ويمكننا تسجيل الملاحظات الأولية التالية:

أ. الأنا النبوية:

يؤكد القرآن الأنا النبوية بوصفها ذاتاً مصطفاة، غير الأنا الفردية الخاصة. فذات المصطفى المتعلقة بالغيب، المنتسبة إلى ذات البشر، مشغولة بالوحي عما يستدرجها من أغراض الحياة استدراجياً كلياً. فهي ذات بشرية مترفعة بالوعي، وممتازة بالوحي. والنبي(ص) يقدم ذاته بإلحاح وإيمان: ﴿**قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي**﴾. فهذه الذات الموقنة لا تني تؤكد نفسها بمختلف الأشكال: ﴿**إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾. وتبدو لنا جلية هذه الصلة بين البيِّنة وبين النذير المبين الذي يعود لتوكيد نفسه بتعبير قرآني آخر: ﴿**قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾. لم يؤكد نفسه المؤتمنة على البيِّنة، في آيات تتكرر مرات ثلاثاً، على شاكلة ﴿**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**﴾. وهذا التوكيد هو رد على المشككين بأمانة الذات النبوية.

ب. نبوّة الإنسان:

في مواجهة الذين يعتقدون أن النبوّة لا تكون للبشر وإنما للأرواح والملائكة، يؤكد القرآن نبوّة الإنسان. ولقد اتخذ أعداء النبي(ص) من شرطه الإنساني أداة للتشكيك بدوره النبوي ووسيلة لنقص دعوته. فيردّ القرآن على دعواهم بالتوكيد على مقام الإنسان – النبي:

-﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا* كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا**﴾.

-﴿**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا**﴾.

-﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا**﴾.

-﴿**وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلا مَّسْحُورًا**﴾.

العدد الثامن - 1445هـ - شتاء 2024م

-﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِن رَبِّ العالَمِينَ﴾؛ ﴿وما عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هو إِلاّ ذِكْرٌ وقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾.

ج. دور النبيّ:

بعدما أكد القرآن ذات النبي الموقنة، وثبّت نبوّة الإنسان، بسط للأفهام دور النبيِّ(ص) من خلال شخصيته وأخلاقه. فالإنسان النبيِّ لا يدّعي اختلافاً عن البشر، ولكنه حين يوحى إليه يغدو رسولاً متميزاً، موضع اعتقاد بشري: ﴿قُلْ إِنمَّا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنمَّا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾. فهذا الإنسان يستمد دور النبي(ص) من الوحي: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. إذن النبي(ص) هو الذي يضطلع بدور الهادي لشعبه خاصة، وللبشر عامة. ومرة أخرى نلاحظ أن صفة الهدى تبدو مشتركة، ولو بتمايز، بين الغيب والنبيِّ(ص)، وبين النبيِّ(ص) والبشر. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾. وهذا البشير النذير هو أيضاً الشهيد على الاعتقاد الإيماني والهادي إليه في آن، وهو الرسول القائم بذاته على الرسالة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيرًا﴾، ﴿مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾؛ ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾؛ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

وفي مقابل ما يطرحه أهل الكتاب من سؤال يتحدى دور النبي(ص) ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، تتوالى الآيات التي تدفلع هذا الإصر عن النبي(ص): ﴿تلْكَ آيَات الله نتلوها عَلَيْك بِالْحَقِّ﴾، ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ* وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾، ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُ بَينِي وَبَينَكُم وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلقُرءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾،﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

إن دور النبي(ص) هو أن يجادل مدفاعاً عن رسوليته ورسالته، ولكنه لا يجادل إلا بأدب وعلم إلهي. فالقرآن يصفه أطيب الوصف: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ويهديه إلى أدب النبوّة﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾،﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ* وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وكم يبدو النبي(ص) متواضعاً في دوره الرسولي حينما تنطرح الأمور الروحانية:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

النبوَّة بين الانقياد والصراع

يبرز القرآن موقفين نقيضين من الغيب والنبوَّة. أولهما موقف انقيادي، إيماني، تسليمي. وثانيهما موقف جدالي، صراعي، نقضي.

أ. الموقف الإنقيادي:

لا يتحقق الإيمان بالنبوِّة الغيبية إلا بالانقياد التام، بالطاعة والتسليم لله ورسوله(ص). وتدعو الآية إلى مثل هذا السلوك ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾. ويؤكد المؤمنون سلكهم سبيل الإيمان القرآني بالقول: **﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.** وتتكرر الدعوة إلى الإسلام بقوله: **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾؛ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ* قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾؛ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. هذا التسليم هو جوهر الموقف الانقيادي الذي يعارضه الموقف الصراعي.**

ب. الموقف الصراعي:

كثيرة هي المواقف الصراعية، الجدالية، التي نلاحظها من خلال تحليل الآيات. ونكتفي في هذا المجال، بالإشارة إلى الآيات الخاصة بموقف نقضي من النبوّة الغيبية:

1 - موقف أهل الكتاب:

ينتقد القرآن موقف أهل الكتاب الذين ينقضون نبوّة الرسول(ص)، ولا يتمسكون بما عندهم: **﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾**[البقرة، 79]. فهؤلاء يحاولون نقض النبوّة بمجابهتها ومعارضتها بكتب من عندهم يزعمون أنها من عند الله. وأكثر من ذلك، يكشف القرآن تناقض سلوكهم رغم معرفتهم الكتابية: **﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾**[البقرة، 44]، **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾**[الأنعام، 20].

-2 موقف المجادلين:

أشرنا إلى أن النبيِّ(ص) يأبى المجادلة في أمور الغيب، ويطلب من المؤمنين التسليم الاعتقادي ﴿**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾. ولكن المجادلين يرفضون من جهتهم التسليم الانقيادي، ويجادلون لنقضه. فيرد عليهم القرآن النبيِّ(ص): ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا**﴾؛ ﴿**وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا**﴾.[الكهف، 56]. ويدعوهم للإقلاع عن المجادلة، والإيمان الصرف: ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ**﴾ [الأعراف، 156]، ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف، 3]. ثم يحذرهم من سوء عاقبتهم: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ*وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾[الزمر، 32-33].

3 - موقف النقضيين:

من هؤلاء الهازئين والمترفين والكافرين، يتشكل موقف النقضيين. أما الهازئون فتقول فيهم الآية: ﴿**وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ**﴾ [المائدة، 58]؛ وأما المترفون فهم بسبب وضعهم الإجتماعي المتميز من الكافرين: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ*وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾،[سبأ، 34-35] ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾[النحل، 24]، ﴿**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾[الفرقان، 5].

جدلية الخلق والطبيعة

يشمل الخلق الإلهي كل شيء؛ فهو حياة وموت ونشور دائم، يتناول الكون والطبيعة والإنسان. وهذا الخلق، بمعناه القرآني، إنما هو خلق مقدس. والمخلوقات آيات تدل على الخالق، تؤكد وحدانيته وتبرهن على قدسية كل مخلوق. فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يسري عليه جدل الحلال والحرام، والطبيعة مقدسة حتى في تحولاتها المادية، والكون مقدس بحركاته المقدَّرة وبكائناته الغيبية العليا. فالخلق الديني يقدم سيرورة أحدية لديمومة الحياة: فهو يبدأ من الحياة ويمر بالموت،- كل مخلوق يمر بالموت، والخالق وحده خارج الموت وفوقه، عابراً نحو البعث، هذا النشور الدائم الشامل لكل شيء. والإنسان لا مستقر لتحولاته؛ وبعثه جسداً وروحاً رمز لانتقاله من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، هذا الانتقال البرزخي، يوم القيامة، من فسحة الأعراف إلى الجنة أو النار. ويقابل هذه السيرورة القرآنية لتحوّل الخلق، تصوران مختلفان: أولهما تصور العرب ما قبل

القرآن، القائل بأن مسار الخلق يبدأ بالحياة وينتهي بالموت، ثم يبدأ الخلق من الحياة إلى الموت دون التوصل إلى النشور. فالموت عندهم نهاية أخيرة، والدهر هو الذي يختم الموت. وثانيهما تصور فلسفي يقول بخلق الحياة وموت الجسد نهائياً وحياة النفس إما بالنشور في القيامة، وإما بالعودة إلى الحياة مجدداً ولكن في أجساد وأجرام جديدة.

أما خلق الطبيعة، قرآنياً، فيشمل الماء والأرض والسماوات والرياح والكواكب والبروق والرعود، والنبات والحيوان والإنسان إلخ. ولا يفصل القرآن بين خلق الطبيعة والإنسان، فالإنسان من ماء وطين، والنبات يولد بالماء من التراب، وخلق الحيوان من الأرض، ويتجدد الإنسان بالتناسل من الماء المهين. ويبدوا الخلق واحداً من الوجهة غير الدينية، غير أن الإنسان الديني يعتبر الطبيعة المخلوقة، وكل مخلوق، ذات قيمة دينية، لأن الكون بكل ما فيه مخلوق إلهي. وكل ما خلقه الله مقدس، ويترتب على هذه النظرة الدينية انقسام ثنائي للخلق المقدس والمدنَّس[1] فإذا كانت صفة الأعلى من صفات الألوهة (القدسية) فهي لا تصحّ على الإنسان (الدناسة – الخلق من ماء مهين). والسماء – وهي عند العرب كل ما سما فوق الرؤوس- عالية ومقدسة لأنها من صنع الإله القدير، **فَاطِرَ** السَّمَاوَاتِ **وَالْأَرْضِ**. والحقيقة أن هذا الاستعلاء القدسي، هذا الابتعاد الإلهي عن عالم الدناسة، إنما يعبر في الواقع عن اهتمامات الإنسان المتزايدة باكتشافاته الدينية والثقافية والإقتصادية. ومثال ذلك أن اكتشاف الزراعة بدّل جذرياً اقتصاد الإنسان البدائي، واقتصاده المقدَّس بوجه خاص. إذ أنه مع اكتشاف الزراعة ظهرت على المسرح قوى دينية جديدة، منها الجنس والخصوبة وأسطورية المرأة والأرض إلخ، وأضحت التجربة الدينية ممتزجة بالحياة، وباتت عينية، ملموسة، أكثر من ذي قبل. وحين أخرج المقدس السماوي من الحياة الدينية، مستعلياً على دناسة الحياة الأرضية، ظل هذا المقدس ناشطاً فيها من خلال الرمزية. إذ أن الرمز الديني ينقل رسالته الخاصة، متوخياً الكائن البشري بكليته، وليس لبَّه وحسب. ونسترشد، في هذا السياق،ـ بوظيفة رمزية الماء: أن الماء يفكك الأشكال ويحوّلها – وجعلنا من الماء كل شيء حي- ، ويطهر الخطايا –بالوضوء عند المسلمين وبالعماد عند المسيحيين؛ ويخصب الأرض، ويجدد الإنسان. وعليه فإن كل ما هو شكل يظهر فوق المياه منفصلاً عنها. ويمكننا أيضاً الاسترشاد برمزية النار التي تبدل الصور والأشكال، وكذلك برمزية النور، ورمزية الهواء والتراب إلخ. ومما يلاحظ أنه لم يطرأ تبدل جذري على بنية أية رمزية قديمة، وإنما كان التاريخ يستضيف إليها باستمرار مدلولات جديدة لم تتمكن من تدمير بنية الرمز القديم. ومثال ذلك أن العرب كانوا يرمزون للإنسان بأنه ابن ماء السماء، وإبن الأرض، ثم أضاف القرآن الكريم رمز إبن ماء آدم. والثابت في تحولات هذه الرمزية هو تماثل العنصر البشري مع الماء والأرض.

[1]- ELIADE – Mircea: Le sacré et le profane; éd Idées, N.R.F, Paris 1965. Voir p.p 99 -181.

علوم المبدأ LLMOLMABDAA
العدد الثامن - 1445هـ - شتاء 2024م

ومن جهة ثانية، يعتبر الإنسان الديني أن العالم موجود فقط لأن الله فطره وأنشأه، وأنه مستمر بإرادة خالقه الذي يعيد إحياءه وإنشاءه. ولهذا فإن وجود العالم بالذات يعني شيئاً ما، فهوعالم ذو غاية وذو معنى. إنه، دينياً، عالم يعيش. ويحكي. وحياة العالم بالذات هي دليل على قداسة خالقه، لأن الله يتجلى لإفهام البشر من خلال مخلوقاته (الطبيعة والكون) ومن خلالهم بالذات (النبوَّة بالوحي). الأمر الذي يجعل الإنسان الديني يعتبر نفسه كوناً صغيراً، ويعتبر الكون إنساناً كبيراً؛ ويجعل التماثل ملموساً أكثر بين الأرض والمرأة: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ**﴾ [البقرة، 223].

يشدد القرآن على أن وجود الطبيعة والمخلوقات هو خلق إلهي لا تطور كياني. وأما التحولات الظاهرة فهي مقدّرة بأمره. فالحياة تموت وتعود بالنشور، تستمر بأشكال أخرى، والحال، فهل النشور آني أم دائم؟ جزئي أم كلي؟ هل تكفي رمزية الماء للتدليل على نشور الحياة الدائم، أم أن الماء وسيلة دينية للتحول الجدلي (رمزية الوضوء، وغسل الميت إلخ) من الدناسة إلى القداسة؟ وهل رمزية الهلال كافية للتدليل على جدلية التحول(الولادة – الموت – الولادة)، وكأنه يرمز إلى التغير والتبدل الدائمين؟[1].

الخلق والنشور

أ. نظرية الخلق الديني:

تنطلق نظرية الخلق الديني في القرآن من اعتبار أن الحياة هي كليَّة وعامة، وأن الموت جزئي وخاص؛ فالحياة هي الجوهر الدائم، والموت هو العَرَض الطارئ، تحوّل جزئي في حركة الحياة الكليِّة التي تظل في حالة من النشور. والخلق هو فعل أحدي لإله واحد؛ أما المخلوق البشري فهو صانع لا خالق.

ويبدو لنا الفصل القرآني، بهذا الشأن، في الآية ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ**﴾. فالخالق هو الله، وما عداه مخلوق له، تسري عليه جدلية الحياة والموت والنشور. ذلك أن هذا الخلق الإلهي هو فعل لامتناه في الزمان والمكان، وهو مقدّر ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾. ولله وحده مبدأ الخلق ومنتهاه وإعادة إنشاءه: ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾؛ ﴿**مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ**﴾[يونس، 34].

أما مصدر الخلق، ومادته ومواضيعه وأغراضه وأشكاله، فإن القرآن الكريم يبرزها ي آيات متعددة. فالإنسان، مثلاً، مخلوق لله ﴿**أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا**﴾﴿مريم،

[1]- ELIADE – Mircea: Traité d'histoire des religions ; éd payot ;, Paris 1968. Voir p.p 222 -224.

67] وهو مخلوق بأمر، لا بنشأة طبيعية وتطور تاريخي. وكذلك شأن كل مخلوق من نبات وحيوان وعناصر وأركان طبيعية وأفلاك وأكوان وكائنات غيبية. إن أمر الكون وما يقابله من أمر الدثور، هما أساس النظرية القرآنية في الخلق الإلهي: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾. ﴿**إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[البقرة، 82، 117]. والأمر بالإرادة والأمر بالقضاء واحد في مفهوم الكون أي الوجود. على أن هذا الكون ليس حراً بذاته، فهو مقدَّر من الخالق بتصور وإرادة وقضاء. ففعل الإرادة هو فعل القضاء، وأما فعل الكون فهو الوجود والدثور معاً. فكل مخلوق هو، بحكم كونه، موضوع للدثور، للتحول والزوال، وللنشوء مجدداً بالنشور. وكأن الأزل الملازم لصفة الخالق الأبدي، يكسب صفة الديمومة، مع التحول، لكل مخلوق. فما صلة الخلق الإلهي بالنشور؟

ب. جدل الحياة والموت والنشور:

ما من مخلوق إلا ويسري عليه جدل الحياة والموت والنشور. فالخلق سلسلة متكاملة في المفهوم القرآني. فالكون – الوجود هو حي، ولكن المتولدات فيه تعاني تعاقب الولادة والموت، فكأن الولادة وهي خروج من المكنة إلى النشأة، من الدثور إلى الكون، تتقابل دائماً بنقيضها: الموت. وكأن الموت يتقابل دائماً بنقيضيه النشور، النشأة الأخرى، الولادة الجديدة. وهذا يعني أن القرآن يقدم تصوراً جدلياً لديمومة الحياة في أشكال متبادلة، لا متناهية، وكما أن الخالق هو المحيي، فهو المميت وهو أيضاً المعيد: ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾؛ ﴿**هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾، ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ**﴾.

إن الله الخالق الدائم جعل خلق الحياة في الكون لا متناهياً. فالبشر ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل، 21]. ذلك أن الإنسان لا يدرك مغزى الخلق بدون اكتناه تصور خاص للنشور الديني: ﴿**وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا**﴾[مريم، 66]؟ وتأتي الأجوبة في آيات كثيرة، تؤكد للإنسان أنه مخلوق ليكون ويندثر وينبعث: ﴿**قَالَ فِيهَا تَحيَونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنهَا تُخرَجُونَ**﴾[الأعراف، 25]؛﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ**﴾[طه، 55] ؛ ﴿**هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ [الملك، 24]؛ ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ**﴾ [الحج، 66]. فالإنسان غير المؤمن بنشوره، يعتبره القرآن كافراً، أي جاهلاً بما غاب عنه من أمر الغيب. ويبدو قدر البشر في خلقهم مأساوياً- ﴿**وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا**﴾[الفرقان، 3]-؛ على أن القدر الإلهي هو نقيض ما تذهب إليه القدرية من نكران، إذ أنه ذو غاية تنكشف من وراء سيرورة الخلق المتواصل: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾[الملك، 2]، فالعمل الصالح هو منتهى جدلية الخلق والنشور في الاعتقاد الديني: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**﴾[العنكبوت،19]؛ ﴿ **اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ**

علم المبدأ LLMOLMABDAA
العدد الثامن - 1445هـ - شتاء 2024م

﴿تُرْجَعُونَ﴾[الروم، 11]. أليس في هذا المسار الجدلي تأليه للإنسان؟ وإلا فما هو مغزى البدء والنشأ، والحياة والموت، والنشور بالنشأة الأخرى، سوى وصل المخلوق بالخالق وصلاً لا متناهياً؟ وكيف يمكننا أن نتصور هذا الخلود للإنسان بمعزل عن خلود خالقه؟ وما الفرق، في النهاية، بين خلود المخلوق، كما يصوره القرآن، وبين خلود الخالق، سوى أن الأخير لا يخضع لمسار جدلية الحياة والموت الذي يعانيه الأول؟

لا ريب أن القرآن إذ يربط نظرية الخلق الديني بنظرية النشور، إنما يقدم تصوراً غير مباشر عن خلود الإنسان – هذه الفكرة القديمة الماثلة في مرموزات الأديان. ولكنه يقدم في الآن ذاته تفسيراً جدلياً لوحدة الولادة والموت في الحياة، المنتشرة بدون انقطاع، الناشئة بدون انتهاء. فلا يترك القرآن مجالاً للشك في أحدية الخالق، الفاعل لكل فعل تحوّلي أساسي: ﴿**كُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [البقرة، 24]. فهذه الرجعة بالحياة إلى المحيي أليست تأزيلاً للكون، وإخراجاً له من الدثور إلى الحيوان، وهو الحياة بعامة؟ فالخلود متأت من طرق الخلق، وهو مُعطى للمخلوق من طريق ديمومة الخالق، متفرع عنه راجع إليه، كما البذرة الميتة ظاهراً، الحية مكنة وقوة، المنبعثة بالإزدراع. فإذا كان المخلوق خالداً بالقوة، هو مندثر بالتحول من الموت إلى الحياة ومن الحياة إلى الموت، وهو منتشر بالقيام: ﴿**ثمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [البقرة، 56]. فالشكر هنا مجال لتوكيد الصلة الاعتقادية بين المخلوق والخالق. ﴿**كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[البقرة، 73] فكأن الله يطلب من مخلوقاته أن تؤمن به وان تعقل وجوده ووجودها، المعلول لوجوده.

لكن الإنسان لا يسلِّم، اعتقاداً وانقياداً، بهذا التصور القرآني. فتقوم مجادلة بين المؤمنين – وهم العارفون اعتقاداً-، وبين الكافرين- وهم الجاهلون اعتقاداً - . وتصور الآيات القرآنية هذه المجادلة الاعتقادية، الفكرانية، بأشكال شتى، منها الحوار مثل: ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ**﴾ [البقرة، 259]. ومنها التناقض الاعتقادي المباشر، مثل: ﴿**قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾[البقرة، 258]. ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[الأنعام، 122]. ويبرز اقتران العلم بالإيمان في تمييز المؤمنين من الكافرين، كما في الآية: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ وفي المقابل يصور القرآن الموقف غير الإيماني وغير الانقيادي الذي يتخذه الكافرون بقولهم: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**﴾؛ ﴿**وقالوا: مَا هِيَ**

﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.[المؤمنون، 37] ثم يجادلهم القرآن مجادلة قاطعة بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان، 9]؛ وأخيراً تعيدنا الآيات لى أساس نظرية الخلق والنشور – الأساس الجدلي: لا موت بدون حياة، لا حياة بدون موت أي تغير، ولا خلق بدون نشور، والعكس-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج، 6]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران، 185]؛ ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُم إِلَى نَصْبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج، 43]؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج، 7]، كما ينشىء من في الأرحام، ويخرجهم من الدثور إلى الكون، ثم من الكون إلى الدثور، ثم من الدثور إلى النشور: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس، 65] . وعلى هذا الأساس الاعتقادي من جدلية الخلق والنشور، يقدم القرآن نظرية السلام في ائتلاف ظواهر الخلق واختلافها في الطبيعة ولدن البشر: من طقس الماء، إلى خلق السماوات والأرض، حتى الشمس والقمر، والنبات والحيوان، وتتويج كل هذه المسارات بخلق الإنسان.

جدلية الطبيعة والإنسان

أ. طقس الماء

تلتقي أغلب الديانات القائمة في مجتمعات زراعية على تقديس الماء بوصفه عنصراً أساساً من عناصر الكون والتكوّن. فهو في آن شقيق التراب والهواء، وهو من أسباب الحياة وقيامها الجديد في كل شيء بعد كل موت. وفي الحياة الدينية يعطى للماء دور التطهير، وزرمز الخلاص بالطهارة من الدناسة، والارتفاع كما الماء إلى القداسة، إلى الأعلى حيث يتآخى الماء والهواء، والهواء والنار، والنار والضوء – آخر النور. أما في الحياة الزراعية فيبدو دور الماء فاصلاً بين موت الأرض وحياتها، وبين دثور النبات وطلوعه بالماء إلى الكون، وبين خروج الحيوان من الماء واستمراره على وجه الأرض بالماء ذاته – ماء الأرض والبحار وماء السماء.

إن الماء هو أصل الحياة، وهو كائن في كل كون ووجود. وتتحول أهمية الماء – هذا المُحيي الآخر – إلى طقس ديني، به يرمز إلى الخالق، وبه يُستدل على الخلود بالنشور المتواصل: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف، 11]. فقد كان عرش الخالق على الماء، والماء في القرآن يتآخى مع السماء والأرض، مع القداسة والدناسة، الأعلى والأدنى، الغيب والشهادة؛ ويصل الموت بالحياة، ويخرجهما معاً – كهذه البلدة الميت – إلى الكون. ثم هو، بالطوفان، يعيد الكون إلى الدثور. هذا، ولا ينظر الإنسان الديني إلى ظاهرة الماء بوصفها ظاهرة طبيعية، وإنما بوصفها ظاهرة إلهية ذات معنى ديني؛ فالماء هو في آن مخلوق لإله، وخالق للحياة بأمر الله. فالماء لا يصعد من الأرض إلى السماء، ولا ينزل منها إلى الأرض، ولا يتدفق من الينابيع

ويرفد الأنهار والبحار، بآلية طبيعية معلومة، وإنما بخلق إلهي مقدر، وبأمر ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. **فالماء، الظاهرة الطبيعية، هو في الآن ذاته إلهية. والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن:** ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[الحج، 5]. فيبدو الماء، المنزَّل بأمره من السماء، وكأنه بالنسبة إلى الأرض بمثابة الوحي إلى الإنسان. فما الماء إلا بيِّنة إلهية. وحي للشيء بأن يكون. والإنسان، الذي تصوره العرب بأنه «إبن ماء السماء»، ليس إبن آدم، إبن الطين وحده، وإنما هو ناتج، بأمه، عن وحدة الماء والتراب، ووحدة الماء والسماء. وقلَّما ننتبه إلى الآية التي تقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان، 54]. فمن اختلاف العناصر الكونية ومن ائتلافها، يتركب مسار الحياة والموت والنشور، أي مسار الخلق الدائم المختواصل. وفي هذا المسار، يحتل الماء مكانه قدسية عليا:﴿وهْوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنهُ خَضِرًا﴾[الانعام، 99]؛ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس، 24]؛ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[النور، 45].

فالماء معلول ديني- وكان عرضه على الماء-، وعلَّة دينية للخلق، ولكن بأمر الخالق الأعلى. إنه حامل العرش الإلهي، وواصل سماواته بأراضيه، والقائم بدور كبير في الإقتصاد الطبيعي والزراعي:﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ*يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل،11،10]؛ ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾[النحل، 14]؛ ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ* هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان، 53]؛ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[السجدة، 27]؛ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا* ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر، 21].

بهذا التركيز على المكانة القدسية للماء في مسارات الخلق والازدراع والاستنبات، ونشوء الإنسان واستمراره، يغدو الماء طقساً دينياً، مجرداً عن دوره الطبيعي، فهو آية من آيات الخالق، وليس عنصراً عادياً من عناصر الطبيعة، وهو موضوع اعتقاد: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا

اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة، 60] أي طلب السقيا لقومه بعد انحباس الماء؛ وكانت صلاة الاستسقاء الزراعية معروفة لدى العرب قبل القرآن، فلم يجبَّها، وإنما استضافها إلى بنية الرمز الديني للماء.

ب. السماء والأرض

على أن القرآن لا يحصر استدلاله على آيات الخلق بآية الماء، بل يمتد به إلى جميع المخلوقات وظواهر الطبيعة. فكل كونٍ مخلوقٍ آية. وهل هناك أسطع من ظاهرة السماء والأرض أمام نظر الإنسان الديني في المجتمع الزراعي والرعوي؟ شقيقتان هما السماء والأرض؛ لكن إحداهما تتميز عن الأخرى بالسمو الديني، فالوحي يهبط من السماء والأنبياء يعرجون إليها. ومنها تتنزَّل الملائكة، وإليها تُرجَع الأرواح. والماء يصل ما انفتق بينهما من رتق: **﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾**. وما خلقهما سوى معجزة يستدل بها المؤمنون لإقناع الكافرين، وفرض اعتقادهم التوحيدي. وإلى هذا تشير الآيات العديدة، فتبدو الطبيعة موضوع تقديس ديني شامل: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ* وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ* وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**[البقرة، 164]. فالقوم في المجتمع الزراعي يعقلون، بحكم أوالية إنتاجهم، مدى أهمية الطبيعة في حياتهم، ويتقبَّلون في ثقافتهم الإجتماعية انعكاس هذه الاعتقادات، التي تثير الدهشة أكثر مما تفسِّر لهم كونهم في الطبيعة. ذلك أن الإستشهاد الظواهري بمخلوقات الكون يشكل مادة للإعتقاد الديني أكثر مما يشكل أداة منهجية لتحليل الظواهر الطبيعية واكتشاف أواليتها وبنيتها ووظيفتها. وإذا كان القرآن يعدد الظواهر المتعلقة بالسماء والأرض، ويلاحظ أن الناس «يتفكرون في خلق السماوات والأرض»، فإنه يرمي من وراء الآيات الخلقية إلى دفعهم للاعتقاد بالخالق، وحسب. وأما الناس فقد سلكوا إزاء هذه الظواهر مسلكين متناقضين: مسلكاً اعتقادياً دينياً ومسلكاً نقدياً علمياً. الأول يتوخى الإيمان والثاني يتوخى المعرفة العقلانية. وانتظمت وفقاً لكلا المسلكين عقيدتان مختلفتان: عقيدة تقول أن العلم – والإيمان هنا ليس نقيضاً للعلم بل هو من موجباته – إذ يكشف ما يكشف من الحقائق لا يغني عن العلم الإلهي وإنما يوصل إليه أحياناً. وعقيدة أخرى تقول أن العالم في بحثه عن الحقائق الوضعية وفي اكتشافه للقوانين في الطبيعة لا يخدم بالضرورة القضية الدينية (الاعتقاد)، وإنما تستفيد منه في بعض الأوجه لتبرير ما تذهب إليه في مسالكها الاعتقادية.

علم المبدأ ILMOLMABDAA
العدد الثامن - 1445هـ - شتاء 2024م

وسواء كان العالم الطبيعي مؤمناً أو كافراً بالمعنى القرآني، فإنه لا يستطيع مناهضة القول القرآني: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[آل عمران، 190] ولكنه يمكنه أن يذهب مذهباً تفسيرياً في استطلاع آيات الخلق، خلافاً للمذهب الاعتقادي الذي يقفز من مجابهة ظواهر الطبيعة وتفسيرها والسيطرة عليها، إلى الاكتفاء اليقيني بأنها مخلوقة لخالق واحد، وأن الإيمان به يكفي لتسخيرها لخدمة الناس، فينحصر دور هؤلاء في العبادة:﴿**ٱلحَمدُ للَّهِ ٱلَّذي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلأَرضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمٰتِ وَٱلنُّورَ**﴾ [الأنعام، 1]، ﴿**وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا**﴾، ﴿**فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ*وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[الانعام، 96-97]،﴿**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ**﴾ [الرحمن، 20]. غير أن العبادة شأن تقديسي، في حين أن الكشف العلمي شأن تحليلي وتفسيري وتحويلي لوجود الإنسان بالذات ولتحديد مكانته وجوره. فالمؤمن يكتفي بتكرار الآية الكريمة:﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ ولكن من حق العقل، وهو لا تصح عليه صفة الإيمان أو الكفر، أن يتساءل ما هي السماء وما هي الأرض وكيف تنتظم الأمور وكيف يمكن تغيير المجريات ولماذا تتبدل ظواهر الطبيعة وكيف تفاعلت وتطورت عبر الزمن الطويل، إلخ؟ ومن واجب العقل أن يحصل على أجوبة من تجارب الإنسان الطويلة؛ فإذا كان المؤمن يقف، مع القرآن، عند حدود ما أنزل من علم إلهي على النبيِّ(ص)، فإنه لا يستطيع في عصرنا أن يجعل من إيمانه تبريراً لتقواه ولعجزه التاريخي عن تغيير أدوات عمله ودلائل علاقته بالطبيعة: ﴿**إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالأَرضِ لَآياتٍ لِقَومٍ يَتَّقونَ**﴾ [يونس، 6]. والتقوى إذ تؤكد المؤمن في إيمانه، لا تدفعه خطوة واحدة على طريق الكشف العلمي. ولا يجوز أن يؤخذ من كلامنا الظن بأن المؤمنين الأتقياء لا يمكنهم أن يكونوا علماء بالمعنى الصحيح للكلمة؛ وإنما قصدنا هو أن الوقوف بالمعرفة عند غاية التقوى الإيمانية، والقول﴿**آمَنَّا وَصَدَّقْنَا**﴾، من شأنه أن يصبح مانعاً دون التبحُّر في مجالات البحوث العلمية. ونحن لا نزعم بحال من الأحوال أن الإيمان مثلاً هو الذي جعل بلادنا متخلفة علمياً، وأن التحرر الاعتقادي هو الذي جعل بلداناً أخرى متقدمة علمياً. ففي البلدان المتخلفة والمتقدمة علمياً نلاحظ ظاهرة الاعتقاد والإلحاد معاً؛ ومعت ذلك إن التمايز العلمي قائم بينها، وعلَّته ليست اعتقادية محضة، وإنما هي علَّة تاريخية متعلقة بظروف التغير والتحرُّر الاجتماعي والتطور الاقتصادي والثقافي والعلمي. فأن يكون الإيمان وسيلة اعتقاد شيء، وأن يكون المنهج العقلاني وسيلة استقصاء واكتشاف شيء آخر، فأين يقف القرآن من ذلك؟

ليس من العدل التعامل التجريدي مع القرآن. فهو من الوجهة التاريخية يخاطب مجتمعاً زراعياً رعوياً عربياً محدداً. وهو من الجهة النصوصية يحتمل تصورين: التصور الإطلاقي، الإيماني، القائل بشموله لكل مكان وزمان؛ والتصور التاريخي النقدي القائل بمحدودية توجهه إلى ذهنية إجتماعية معينة. فبين التعيين والإطلاق تمكن مشكلة الفكر الاعتقادي في عصرنا. ومن العبث كل محاولات التوفيق بين العلم البشري وبين الفكر الاعتقادي- ومنه الدين. فالاعتقاد بـ ﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا**﴾[الملك، 3] لا علاقة له، مثلاً، بوصول الإنسان إلى القمر، ولا باكتشاف وجود الملايين من المجرّات والكواكب. فالقرآن لا يقدم براهين علمية وإنما يقدم للمؤمنين مادة اعتقاد ملموسة: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ**﴾[الملك، 5]. فالإيمان بوجود المصابيح لا يعفي أولي الألباب من البحث عما تتكون منه هذه المصابيح وكيف هي. وهكذا، تبدو وظيفة الفكر الاعتقادي تقديم الآيات للمؤمن، بينما تبدو وظيفة العقل النقدي اكتشاف القوانين وتقديمها لكل الناس، معتقدين أو غير معتقدين. ومن مواجهةٍ ما، تصحّ نفس الملاحظة على آيات القرآن الخاصة بظواهر الطبيعة. فهذه الآيات تخاطب المؤمنين والكافرين على حد سواء، ولا تعفيهم جميعاً من البحث الجدلي عن مكوّنات الطبيعة وسيرورتها الأوالية والوظيفية:﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا*وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا*وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا*وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا**﴾[النبأ، 6-9]. فالأرض والجبال والأزواج والنوم لا تعفي العاقل، مؤمناً كان أم كافراً، من تحليل ظواهرها واكتناهها. ولكن القرآن ينشد موقفاً إيمانياً من جانب البشر:﴿**أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا* رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا* وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا* وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا* وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا* مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ**﴾[النازعات، 27-33]. فهؤلاء البشر، الضعفاء أمام الخالق، هم في منزلة العبيد من الرب الذي يحاسبهم ويعاقبهم:﴿**إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ* وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ*وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ*وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ* عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ**﴾[الانفطار، 1-5]. إن هذا التغيير في الطبيعة هو آية على القيام الديني، وليس ظاهرة تدعو العلماء إلى درسها وحسب. هنا أيضاً يختلف موقف المؤمن عن العالم إزاء تحوّل الظواهر الطبيعية: فالأول يعتبرها من دلائل الغيب، والثاني يراها مادة اختبارية لا صلة لها بالاعتقاد الديني. وتبدو متغيرات الطبيعة في القرآن موضوع قسم ديني:﴿**وَالْفَجْرِ* وَلَيَالٍ عَشْرٍ* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**﴾[الفجر، 1-4]،﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ**﴾**[البروج، 1]**، ﴿**وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ* النَّجْمُ الثَّاقِبُ**﴾[الطارق،1-3].

إن كل المسألة الطبيعية تعود في القرآن إلى التدليل على الخالق. فالطبيعة ليست بذاتها ذات أهمية، لولا ما يقع عليها من أمر الله: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۖ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ**﴾، ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾، ﴿ **فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾؛﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ* وَجَعَلَ فِيهَا**

رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ...* فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾. فالطبيعة كلها لا قيام لها بذاتها، ولا منفعة تُرجى منها، لولا إرادة الله؛ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾؛ ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء﴾﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ، فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾؛ ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؛ ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾، ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. إذن ينتهي المطاف في التصور القرآني لخلق الطبيعة إلى أحديَّة الخالق، الذي لا يكون خلق بدون أمره، ولا يكون جدل بين الإنسان والطبيعة إلا من خلال هذا الاعتقاد. فمن الله كل شيء وإليه كل شيء. وإذا كان الرعد والملائكة يسبِّحون بحمد الخالق خيفة، فكيف بالإنسان؟ هذا هو المعنى الأخير لإشارات القرآن. فالعبادة تكون له وحده، وكل مخلوق يكون عبده. ومهمة الدين، في هذا المعنى، هي أن تجعل الإنسان قابلاً بعبوديته لله، رافضاتً لعبودية ما سواه. وما المظاهر الطبيعية كلها بمستحقة العبادة، وهي عبدة بدورها لخالقها.

ج- الشمس والقمر:

إن دحض عبادة الإنسان للطبيعة وظواهرها من أهم الأمور التي يتوخاها القرآن. فهو إذ يسلب الطبيعة دورها الذاتي المستقل، وينفي عنها أن تكون بدون أمره، وأن تفعل دون إرادته، إنما يضرب المثل للإنسان على عبودية الطبيعة للخالق، ويدفع به من ثم إلى نبذها عبادياً، وهي المسخَّرة له بأمر الله:﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[النمل، 24].

والملاحظ أن الشمس التي كانت لها أهمية كبرى في الديانات الطبيعية القديمة، ستفقد مكانتها القدسية في الأديان العليا، وتستمد دورها الديني الجديد من كونها آية من آيات الخالق، وليس بسبب أهميتها الذاتية(الضوء) بالنسبة إلى حياة الإنسان والطبيعة. فالضوء والماء والهواء والتراب ما هي عناصر الكون فقط، وإنما هي أيضاً مخلوقات مأمورة، مسخَّرة، وعابدة لله. فلا تجوز عبادتها. وكذلك القمر الذي كان يراه العرب يرمز لتحولات الحياة والموت والنشور، وكان قبل

القرآن من رموزهم السياسية – الدينية، فصار القرآن من آيات الله ومعجزات خلقه: ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ. فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾،﴿**وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا**﴾؛ ﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾؛﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ**﴾. وهذه الكائنات الطبيعية المأمورة المسخَّرة لا يجدر بالإنسان أن يعبدها ولا أن يتوجس خيفة من تحولاتها. فهي، أيضاً، لا تتحول إلا بأمره، وتحوّلها مقدَّر وذو معنى: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ* وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ* وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ* وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ* وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ* وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ* وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ* وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ...**﴾

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا* ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا...**﴾؛ ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾، ﴿**ذلك بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**﴾ ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾. ومعنى هذا التحول ديني صرف، ويدعو للاعتقاد العبادي. وكذلك شأن تحولات النبات والحيوان والإنسان في الطبيعة والكون.

د- النبات والحيوان:

ليس النبات والحيوان من نتاج المجتمع الزراعي وحسب، وإنما يعتبران في نظر الإنسان الديني من مخلوقات الله المأمورة، المسخَّرة؛ ومن معجزاته الشاهدة على قدرته وعلمه اللاَّمتناهيين. ومما لا شك فيه أن الإنسان الزراعي كان يرى الشاهد في ظروف الإقتصاد الطبيعي مدى تعلق حياته بهذا الاقتصاد واعتمادها على نبات الأرض وحيوانها. وكان في الآن ذاته يحاول تفسير التحولات الطارئة أمامه في سيرورات الزراعية وتربية الحيوان. ويشدد القرآن على هذه التحولات الزراعية والحيوانية باعتبارها ذات دلالة دينية محددة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ**﴾. إذن ليس للنبات وللحيوان حياة بذاتهما، ولا هما مستقلان، حرّان، في تكوّنهما. فهما لا يكونان إلا إذا أمرا بالكون. فلا شيء في الطبيعة كائن بذاته ولذاته؛ وإنما كل شيء، دينياً، كائن بالخالق. وفي تحوّل الإنتاج الزراعي، لا تتوقف الوفرة والخصوبة إلا على الخالق وحده: ﴿**كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء**﴾؛ ﴿**وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ...**﴾؛ ﴿**وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى**﴾، ﴿**وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ**

صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ **﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها(حنطتها) وَعَدَسِها وَبَصَلِها قالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذي هُوَ خَيْرٌ..﴾**؛ [البقرة، 61].

ويلاحظ أن دور الإنسان الزراعي مطموس وراء دور الله، الخالق المطلق: **﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾**؛ **﴿جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾**. إنه إذن خلق غير عادي، فالإنسان حين يزرع ويستنبت الأرض لا يزرع ولا يستنبت إلا ما يشاء الله. وهنا يمكن التساؤل عن الدور المتبقي للإنسان المنتج في المجتمع الزراعي. فهل بمكنة هذا التصور الاعتقادي أن يشجع تطور الإنتاج بمبادرة الإنسان الزارع، طالما أن **﴿اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾**، أي طالما إن تزايد الإنتاج لا يقوم على معرفة الإنسان ونشاطه بقدر ما يقوم على الأمر الإلهي، القَدَر الإنتاجي؟ نفهم أن التصور الديني التوحيدي يرمي إلى نفي كل اعتقاد بإله آخر، بخالق آخر غير الله؛ ولكن يصعب أن نفهم كيف يستطيع الإنسان أن يقبل، راضياً مرضياً، بإلغاء دوره الإبداعي الملموس في كافة نشاطاته. فالمؤمن شأن الكافر، يريان أن العمل البشري هو الأساس في تطوير الإنتاج الزراعي، مثلاً، ولكنهما يختلفان في أصل الخلق: هل هو خلق إلهي أم خلق نشوء وتطور على مدى أحقاب التاريخ. وهذا الاختلاف بين اتجاه عقدي واتجاه نقدي، لا يؤثر بشيء على واقعة أن العمل البشر يلعب دوراً حاسماً في تطوير المجتمع الزراعي. فإذا لم يزرع الإنسان، بمعرفة ونشاط، فإن الاعتقاد لا يبدل شيئاً من ذلك. فالعمل الزراعي – النبات والحيوان – هما موضوع ممارسة وفعالية؛ ولا نعرف ماذا سيبقى من النبات والحيوان على وجه الأرض بدون عمل الإنسان وخبرته، وماذا يُرتجى من الاعتقاد الإيماني، في هذا المجال، سوى ثواب الآخرة؟

إن القرآن يريد بآياته تعليم الإنسان ما لم يعلم؛ ويريد من علمه هذا أن ينشيء مؤمنين أكثر مما ينشيء علماء نقديين وجدليين. إنه يدعوهم إلى النظر في المخلوقات للاستدلال بها على الخالق: **﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾** [الغاشية، 20]. وكأنه يسألهم من فعل هذا أنتم أم الله؟ **﴿الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ* وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ* وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ*وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾**. يبقى من الثابت دور الإنسان في الثورة الزراعية وتدجين الحيوانات، وإبداعه وسائل إنتاجه وإنتاج حياته على مدى التاريخ. وهذا يعني أن الخلق الإلهي لا يلغي الخلق البشري، ولا يمكنه أن ينفيه. فإذا كان الله قد أوجد الطبيعة والإنسان، فإن هذا الأخير قد أوجد الإنتاج وحفظه بوسائله وطوّره وغيّره في جدل دائم مع نفسه ومع الطبيعة. والحقيقة، أن القرآن يستدل بآيات تشهد للإقتصاد الطبيعي أكثر مما تشهد للإنتاج الإقتصادي القائم على الجهد البشري

في المجتمع الزراعي – ولا نسمح لنفسنا بالتمثل بشواهد من المجتمع الصناعي الذي لا يخاطب القرآن أفراده بأي حال-: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ* وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا**﴾[النحل، 66]؛ ﴿**يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ..**﴾[النحل، 69]، ﴿**كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى**﴾[طه، 54]؛ ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً**﴾، ﴿**بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ.. بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**﴾، ﴿**إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا**﴾. وأما الذين لم يؤمنوا ولم يذهبوا هذا المذهب: ﴿ **فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾، **أي كان مصيرهم المسخ، وهوالتحول من هيئة عليا (الإنسان) إلى هيئة أدنى (الحيوان)، فماذا عن خلق الإنسان؟**

هـ - الإنسان:

لاحظنا أن الفكر الاعتقادي يتوجه بكل آياته إلى الإنسان؛ فالإنسان هو موضوع الجذب الاعتقادي؛ وإذا لم يتم إقناعه بتبعيته الخلقية لخالق أعلى منه، وجعله يعتقد بأن عمله البشري لا أهمية له ولا قيمة بالنظر إلى الخلق الإلهي، فإن هذاالإنسان سيبقى جاهلاً بالدين، أي كافراً. فكيف يقدم القرآن للإنسان صورة عن نفسه؟

إضافة إلى التصوير الفردوسي لظهور، الإنسان، تقدم الآيات القرآنية صوراً شتّى عن خلقه. فتارة هو كائن من طين ﴿**هو الَّذي خَلَقَكم من طين**﴾، ﴿**خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ، وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ**﴾، ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ**﴾،﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ**﴾، وهو تارة أخرى كائن من ماء: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا**﴾؛ ﴿**ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ**﴾؛ ﴿**أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ**﴾. وهو، أخيراً، كائن منتفطة تسقط في قرارها وتنمو وتظهر على الأرض بشراً سوياً: ﴿**خَلَقَ الْإِنسَانَ من نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ**﴾، ﴿**ثُمَّ من نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ من مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ من بَعْدِ علْمٍ شَيْئًا**﴾؛ ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ**﴾، ﴿**لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ**﴾؛ ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ من نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾، ﴿**قُتِلَ الإِنسانُ ما أَكْفَرَهُ* من أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ* من نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ* ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ* ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ* ثُمَّ إِذا شاءَ أَنشَرَهُ**﴾. ﴿**فَلْيَنظُرِ الإِنسانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ من مَّاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ من بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**﴾، ﴿**وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا**﴾.

علوم المبدأ LLMOLMABDAA
العدد الثامن - 1445هـ - شتاء 2024م

وإلى جانب هذه الصور المتعددة عن خلق الإنسان من الماء والتراب والنطفة والأنبات، هناك صورة النفس البشرية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾، **وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾، ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾؛ ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ* فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾؛ ﴿**مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ ؛ ﴿**خَلَقَكُم مِّن نَّفس وَ ٰحِدَة *ثُمَّ جَعَلَ مِنهَا زَوجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلأَنعَـٰم ثمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ * لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ**﴾. ﴿**جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾. والإنسان في صور خلقه الطبيعية والنفسية والتناسلية المتعددة والمتواصلة، مدعو دينياً ليكون عبداً لربه الخالق: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾. لكن كيف سيتواجه، في الإجتماع البشري، مسار العبودية الربانية ومسار العبودية البشرية؟ وهل سيقدم الدين حلاً للمشكلة، أم سيكون مشكلة إضافية تواجه تحرر الإنسان؟

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. عبده – محمد: رسالة التوحيد؛ مكتبة الثقافة العربية، بدون تاريخ.
3. عبده – محمد: الأعمال الكاملة، الجزء الخامس في تفسير القرآن؛ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1973.

4. ELIADE – Mircea: Le sacré et le profane; éd Idées, N.R.F, Paris 1965. Voir .
5. ELIADE – Mircea: Traité d'histoire des religions ; éd payot ;, Paris 1968. Voir .